قسم الفلسفة السنة الدراسية 2023-2024

المستوى السنة الثانية ليسانس

L.M.D S3

المقياس: الفكر الخلدوني

الأستاذ: قريمس فؤاد

المحاضرة الخامس

فلسفة التاريخ عند ابن خلدون

فلسفة التاريخ عند ابن خلدون تعتبر واحدة من العلوم التي انتشرت وراجت مع انتشار العمران، بل كثرت وازدهرت في المدن والمناطق الحضرية، وقد جعل ابن خلدون أساس دخول هذا العلم والعمل به، الإلمام بالعلوم الشرعية، لتكون حامية للعقل فلا يضل ولا يتوه في متاهات الأفكار المجردة، فالشرع كفيل بأن يرجع العقل إلى البسيط بدلا من المعقد وإلى التجريب بدلا من التجريد.

جاءت فلسفة التاريخ عند ابن خلدون انطلاقا من أساسه الفلسفيّ، فقد تجاوز في تأريخه التأريخ التقليدي بجمع الوقائع العسكرية، والتحولات السياسية التي اعتبرها ظواهر التاريخ، بل قدّمه بصورة جديدة التفت فيها إلى الجوانب الفكرية والاعتقادية، والتحولات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية باعتبارها تحمل دلالات عدّة باطن التاريخ، راصدًا من خلالها جميع العوامل المحركة للحدث التاريخي والمساهمة في صنعه، وكل ذلك من خلال ما وضعه من رؤية نظرية لتفسير التاريخ مستندة إلى عوامل عدة، سمّاها حينا العصبية الدينية أو القبلية، وحينا آخر البيئة أي الأثر الجغرافي، مضيفًا إلى ذلك العوامل البيولوجية والاقتصادية. وقد كان لأفكاره في التاريخ تأثيرٌ مباشر وقويّ في يقظة الحضارة الأوروبية، وشمولية نظرتها للتاريخ وتكاملها وامتدادها الزماني والمكاني، فأصبح الأرض التي يجب على الفلسفة الوقوف عليها للنظر إلى جميع مجالات المعرفة. i

التاريخ في اللغة العربية مشتق من تأريخ، وتوريخ، وهو يعني الإعلام بالوقت، وقد يدل تاريخ الشئ على غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه، ويلحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة . وهو فن يبحث عن وقائع الزمان من ناحية التعيين والتوقيت وموضوعه الإنسان والزمان، ومسائله أحواله المفصلة للجزئيات

تحت دائرة الأحوال العارضة وفي الزمان والتاريخ في الاصطلاح هو وعاء الخبرة البشرية، أو هو العلم الخاص بالجهود البشرية في الماضي وتستهدف منها جهود المستقبل، فالتاريخ يتناول أمة من الأمم بالتنقيب في طوايا فكرها ومدى ارتباط ذلك الفكر بالدنيا والحياة، ثم اتصاله بمسيرة الإنسان في الأرض وجهوده المتصلة لرفع شأنه اقتصاديا وعلميا وفكريا، ومدى ارتباط ماضي الأمم بحاضرها، وحاضرها بمستقبلها. ويرى ابن خلدون في مقدمته أن التاريخ في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأندية إذا قصها الاحتفال .. لقد نظر ابن خلدون إلى علل الحوادث وأسبابها وحاول اكتشاف السنن التي تنتظمها وأكد على بدايات الحوادث ويرى ابن خلدون في مقدمته أن التاريخ فن فهو يقول في ما نصه : "أعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد ، شريف الغاية .." (وهو يعني بالفن العلم الإنساني وليس أدل على ذلك من إشارته إلى العمران البشري وكيف حدث، وما هي ديناميات حدوثه).2

فإن استخدام ابن خلدون لمعارفه العلمية في تحليل طبيعة أحداث التاريخ وأسبابها بالنظر الفاحص والفهم العقلي هذه هي فلسفة التاريخ أي هذه الرؤية الشاملة والمتكاملة لسير التاريخ وتطور العوامل التي تتحكم في أحداثه بالتأمل والتحليل هي التي جعلت من ابن خلدون مؤسس علم التاريخ وفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع وفلسفة علم الاجتماع. ويرى د. إبراهيم مذكور أن ابن خلدون تمسك بمبدأين اثنين بني عليهما فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع وهما :

أ) مبدأ السببية.

ب مبدأ التطور.

وهما قانون يسيطران على الطبيعة وعالم الإنسان. هذا بالإضافة إلى قانوني التشبه التقليد لما هو أفضل والتباين (التشبيه + إضافة نوعية).

والخلاصة : أن مبدئي السببية والتطور + قانون التشبيه + قانون التباين وما بينهم من حركة جدلية تتشكل القوانين الحتمية التاريخية.

بحيث يرى روزنتال، أن كل من يقرأ مقدمة ابن خلدون بإخلاص ونزاهة لا يستطيع إلا أن يتعرف بأن حق ابن خلدون في هذا الشرف شرف التسمية باسم مؤسس علم التاريخ وفلسفة التاريخ، أقوى وأثبت من حق كل كاتب آخر، سبق فيكو ، ويقول ابن خلدون : "أعلم أن اختلاف نحلتهم في المعاش"3 أي أن النشاط

الاقتصادي هو الذي يحدد أسلوب حياتهم الاجتماعية وهذه هي النظرية المادية التاريخية التي تبحث عن أسباب تطور التاريخ من خلال الأبنية الاقتصادية والاجتماعية. إذا كانت مساهمة ابن خلدون (ابن القرن الرابع عشر ميلادي عملية إيجابية وتأسيسية لعدة علوم في نفس الوقت علم الاجتماع وفلسفة علم الاجتماع وعلم التاريخ وفلسفة التاريخ) في إطار رؤية مستقبلية للمجتمع الإنساني بناء على معطيات تاريخية ودلائل حاضرة.

وإذا كان ابن خلدون قد اهتدى إلى قانون تقسيم العمل وأقر باختلاف أسلوب الإنتاج : – الزراعة التجارة – الصناعة وحدد نظرية القيمة بأن جوهرها يمكن في العمل كان ذلك في القرن الرابع عشر ميلادي) وجاء كارل ماركس ولينين في القرن التاسع عشر باعتماد نفس التقسيم. وبالنسبة لنظرية الثمن فإن ابن خلدون قال إن المنفعة منفعة الشيء بالنسبة للمستهلك هي التي تحدد الثمن في حين نجد لينين يرى أن منفعة السلعة تعطيها قيمتها الإستعمالية .

وحدد ابن خلدون عوامل الإنتاج كالآتي :

الطبيعة (مصدر المادة. 2. رأس المال (الملاك). 3. العمل اليد العاملة المسخرة في عملية الإنتاج). وهي نفس العناصر التي اعتمدها الاقتصاد الليبرالي وكذلك الاشتراكي، لأن ابن خلدون هو المؤسس للمذهب الاقتصادي الحر وذلك قبل آدم سميث بأربعة قرون كاملة :

أ . حرية الأفراد في مزاولة النشاط الاقتصادي.

ب. الحرية في ممارسة المهنة.

ج .إدانة الاحتكار في السوق (خاصة من طرف الحاكم أو أجهزته الإدارية والأمنية).

لقد طبق ابن خلدون مبدأ العلية السببية على الدراسات الاجتماعية والمعاملات الاقتصادية مع بيان علاقة الاقتصاد بالتاريخ متفوقا بدقة المنهج في تناول هذه العلاقة بالنسبة لمونتسكيو الذي درس القوانين التشريعية بعد ابن خلدون بأربعة قرون، إذن ابن خلدون العبقري سبق ماركس ولينين بأربعة قرون وسبق بودان بقرنين، ولهذا نجد روجي غارودي يرى أن ابن خلدون واحد من هذه المصادر العظيمة الخصبة التي تفتخر بها الاشتراكية العلمية. وبهذا الحكم وبهذا المنطق الفلسفي يعتبر ابن خلدون الأب الروحي للأنظمة

الاجتماعية والليبرالية الإسلامية والاشتراكية: إنه إقرار عالمي بهذا المنتوج الثقافي الجزائري الذي سبق عصره بعدة قرون لأن منظوره الفلسفي كان بعيد المدي.4

نظرية ابن خلدون في فلسفة التاريخ:

ارتبَط ابن خلدون بواقعِه الحضاري الإسلامي؛ مما جعله يعتمد فلسفةً خاصة مرتبطة بمنهجيته في دراسة التاريخ التي تعتمد على التقصّي والتدقيق في قَبول الأخبار، ثم تفسيرها تفسيرا حضاريا وفق مرتكزاتِه الأساسية النابعة من فلسفته في تحليل الأخبار التي تعتمد على النقد للحدث، من خلال عدة عوامل جعلت من الاستشهادات الخلدونية تحتمل أكثر من وجهة نظر، اعتمد فيها ابن خلدون في نظريةِ فلسفة التاريخ على عدة عوامل أو مفاتيح؛ تتمثل في النقاط التالية :

1-السنن الكونية والاجتماعية :التي تتمثل في القوانين التي أوجدها الله تعالى في الطبيعة.

2-العصبية :وهي ما يعتبره ابن خلدون تلك الرابطة الاجتماعية التي تربط أبناء القبيلة أو أي جماعة أخرى، وتجعلهم يتعاوَنون في الشدة والرخاء، ويعتبرها شرطًا أساسيًّا لتأسيس الدول وقيام الممالك، وحدد الطبيعة التلازمية بينها وبين النبوة، وبينها وبين الدولة.

3-الدين :ركزت دراسات ابن خلدون على التكوين الاجتماعي والروحي للعرب، ودورهم الحضاري بعد ظهور الدين الإسلامي، وانتشاره بينهم.

منهج ابن خلدون ومصطلح فلسفة التاريخ:

من أهم ما يتميز به منهج ابن خلدون من خصائص: السعة والشمول في مفهوم فلسفة التاريخ، من حيث الامتداد الزماني والمكاني، وذلك من خلال محاولته دراسة التاريخ مِن أوسع أبعاده الزمانية والمكانية – البعد الزماني، والبعد الجغرافي – الأمر الذي أعطاه صفة المؤرخ ذي النزعة الشمولية الواسعة في تدوينه التاريخي، وكذلك في علم الاجتماع السكاني لتوجهاته الحضارية، وربطها بحركة التاريخ، فعمد إلى ربط نشاط البعد السكاني(الاجتماع السكاني) وتأثيره وتأثّره بحركة التاريخ للوصول إلى الحقيقة التاريخية.

إن المنهج الفلسفي الحضاري الذي اعتمده ابن خلدون في تدوينه التاريخي – لا ينحصر في الاستشهاد، أو تفصيل الحوادث التاريخية للعهود والأزمنة السابقة؛ وإنما تجاوزها إلى طرح تصوُّرات وطرق تحليل إضافية

وعميقة للتحولات والأحداث البارزة في الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وحتى الصنائع والعلوم التي أنتجتْها حضارة الاجتماع السكاني محل نظر ابن خلدون.

استفاد ابن خلدون مِن منهج المؤرخين الذين سبقوه مثل الطبري وابن إسحاق، وغيرهما من العلماء والمحدِّثين من منهجية الجرح والتعديل في التحقق من صحة النصوص الخاصة بتدوين السيرة والحديث، واعتمادها في التعامل مع قبول ورفض الأخبار التاريخية، وزاد على ذلك اعتماد منهجية تمحيص الأخبار وتمييز صدقها مِن كذبها، فكان له السبق في ذلك.

كما سلك ابن خلدون منهجا جديدا يختلف عمَّن سبقه من المؤرخين الذين كانوا يعتمدون نظام الحوْلِيات والوقائع التاريخية وفْق ترتيب السنوات، وعلاقتها بالأحداث التاريخية، واستطاع أن يتخطَّاه إلى طريقة أكثر ترتيبا وتنظيما، من خلال تقسيم مؤلفِه في التاريخ (العِبر) على هيئة كتب، وكل كتاب قسمه إلى فصول متصلة فيما بينها في تناول الأحداث، وتتناول تاريخ كل دولة على حدة، مع مراعاة نقاط التواصل والتداخل بين الدول والأحداث التاريخية التي تحدث في نفس الزمن.

فامتاز وتميز بهذا المنهج على مَن سبقوه مِن المؤرخين، ببراعة التنظيم، وحسن الربط بين الأحداث، وتفرَّد بالدقة والوضوح في تبويبِ الموضوعات والأحداث التي يتناولها بالدراسة والبحث.

كما اعتمد منهج النقد والتمحيص، وأسلوب الرفض والقبول للنصوص والوقائع التاريخية، وَفْقَ منهجيته التي اعتمدها وارتضاها كمنهجٍ للكتابة والتدوين، مما قربنا إلى مناهج البحث الحديث في علم التاريخ.

استطاع ابن خلون أن يتخطى الأساليب السائدة في عصره مِن جمود وتقليد، بالعودة إلى المنابع الأصلية، وحسن الاتصال، والاعتماد على القيم والأفكار النابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية، واستفاد إفادة واسعة باطِّلاعه على كتب الرحالة والجغرافيين العرب، التي وفرت له معلومات غزيرة كافية، ساعدتْه على تعزيز كتاباته وإعطائها مصداقية وقيمة زائدة، خاصة في مجال العمران الإنساني المتصِل بعلم الجغرافية ومدى تأثيرها على الإنسان في كافة مجالات حياته

أبدى ابن خلدون اهتمامًا واضحا بالظواهر التاريخية التي تتعلق بالنواحي السياسية، وذلك من خلال إيمانٍ عميق بأن الظواهر الاجتماعية التي ترتكز عليها كثيرًا هي ظواهرُ متشابكة ومعقدة، ومتعددة الجوانب، وما السياسة إلا إحدى فروعها.

ووفْقَ هذه الرؤية الصائبة، والمنهجية المتكاملة التي صاغها ابن خلدون في مجال دراسة التاريخ والكتابة فيه، وفي غيرها من العلوم – استطاع ابن خلدون أن يكون فلسفة جديدة لم يسبق مِن قبل فيها مِن غيره من العلماء المتقدمين عليه في الزمن ولا من تلاه بأربعة قرون، وهي فلسفته في دراسة التاريخ التي أنتجتْ علمًا جديدا يدرس حركة المجتمع السكانيّ وعلاقته بحركة التاريخ، وهو العلم الذي عرَّفه علماء الغرب بعد عدة قرون، وأطلقوا عليه اسم) علم الاجتماع(، ونسبوه لأنفسهم، بينما ظلت فلسفة ابن خلدون في دراسة التاريخ مِن خلال المجتمعات السكانية مدرسة رائدة في مجال التاريخ وعلم الاجتماع، وإن أنكرها بعض المغرِضين من الغربيين، إلا أنها حقيقة تفرض نفسها في الكثير من الجامعات والمؤسسات البحثية التي تعتمد قواعد البحث العلمي المجرد، والبعيدة عن تبني الأحكام المسبقة، أو التوجهاتِ السياسية أو الدينية أو العِرقية، فنجدها تحتفي بابن خلدون وفكره، ويحظى فيها بالتقدير والاحترام، كأحد أبرز علماء الإنسانية، وكرمز لتقدم وسبق ونبوغ الحضارة الإسلامية الرائدة5.

---

[i] البابة حسن، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، 2019، موقع سطور، https://sotor.com

[2] سالم جاسر النصافي، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، مجلة كلية الآداب، جامعة بنها، الجزء الخامس، تاعدد 56، أكتوبر 2021، ص 43.

[3] ابن خلدون، المقدمة، ج 1، دار الجيل، بيروت 402

[4] أحمد بشيري، العقل والحضارة، عند ابن سينا، ابن رشد، ابن خلدون، ابن عربي، منشورات ثالة، الجزائر، ص 82_84

[5] فرج كندي، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون،موقع الالوكة الثقافية، 2017، https://www.alukah.net/culture/0/113094//